

# CULTURAL AND SOCIAL GEOGRAPHY

Paul Claval

Université de Paris-Sorbonne, Paris, France.

## المقدمة

الجغرافيا الثقافية والاجتماعية قديمة قدم الجغرافيا البشرية . تم تقديم مصطلح الجغرافيا الاجتماعية ، كمكافئ للجغرافيا البشرية ، في ثمانينيات القرن التاسع عشر . فقد أكد فريديريك راتزيل ، والد الأنثروبوجرافيا الحديثة ، على التناقض بين الطبيعة - والثقافة \ الحضارة ، مما يعني أن الثقافة كانت بعداً أساسياً في المجال الذي كان ينشئه .

لعبت الدراسات التي تناولت الجوانب الاجتماعية والثقافية للتوزيعات البشرية دوراً مهماً خلال النصف الأول من القرن العشرين . تم اعتبار الجغرافيا الثقافية والجغرافيا الاجتماعية بشكل عام كقطاعات مستقلة في التخصص العلمي . كان الفضول لدور العوامل الثقافية في الجغرافيا أقوى من الاهتمام بالتوزيعات الاجتماعية . ولكن ، خلال الخمسين سنة الماضية ، تغير الوضع بعمق . بين الخمسينيات والسبعينيات من القرن الماضي ، ظهرت الجغرافيا الاجتماعية كحدود بحثية للتخصص بأكمله . في الوقت نفسه ، شهدت الدراسات الثقافية أزمة ارتبطت جزئياً بتحديث الثقافات ، وجزئياً بالطموحات الجديدة للجغرافيين . منذ أوائل السبعينيات ، تطورت الاهتمامات معززة بالمناهج في المجالين الفرعيين .

### ولادة و الدراسات الثقافية والاجتماعية في الجغرافيا وتطورها بين 1880 و 1950

ظهرت الجغرافيا البشرية في نهاية القرن التاسع عشر. كان لا بد من تحليل المجموعات البشرية من منظور مماثل لتلك المستخدمة للكائنات الحية الأخرى . كان لا بد من تقييم تأثير البيئة على طبيعة البشر ، والتركيبات الاجتماعية التي كانوا مسؤولين عنها . كانت الجغرافيا البشرية تعد علماء طبيعياً أكثر من كونها علماء اجتماعياً . من الواضح تماماً أن مثل هذه النظرة قللت من اهتمامها بالثقافات البشرية والبنى الاجتماعية ولكنها لم تمنع تطورها .

من المنظور التطوري السائد ، سرعان ما ظهر أن المجموعات البشرية تختلف عن المجموعات الحيوانية لأنها لم تكن محكومة تماماً بغرائزها ؛ لقد طوروا مجموعات من التقنيات والمعرفة ، والتي كانت بمثابة حاجز بينهم وبين البيئة . ومن هنا جاءت المعارضة من البيئيين ، التي تفتقر إلى وسائل فعالة للحماية من قسوة الطبيعة ، و الحضاريين ، الذين طوروا مجموعة كاملة من الأدوات لتسخير القوى الطبيعية واستخدامها .

### الجغرافيا الثقافية كدراسة للمظهر الارضي

نظراً لأن الجغرافيا البشرية تم تصورها أساساً على أنها علم طبيعي يتعامل مع علاقات المجموعات البشرية مع بيئاتها ، فقد كانت الدراسات الثقافية تهتم بشكل أساسي بالعلاقات بين الإنسان / الوسط (البيئة) حتى منتصف القرن العشرين . كان هذا المنظور مواتياً للتأكيد على عدد قليل من الموضوعات . كيف شكلت البيئة التوزيعات البشرية والسلوك البشري والتنظيم البشري لفضاء المكان ؟ كانت فرضية أبقراط القديمة ما تزال حية في نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن سرعان ما ظهر أن التأثيرات الأخرى لعبت دوراً أكثر حسماً . كان على الناس أن يعيشوا على موارد الأوساط التي يسكنونها . كان من خلال القيود المتولدة بهذه الطريقة بشكل أساسي أن البيئة تتحكم في حياة الإنسان . كان هذا يعني أنه كان على الجغرافيين التركيز على الثقافات المادية للمجموعات التي درسوها ، والطريقة التي تخلصوا بها من النباتات والحيوانات الطبيعية ، واستبدلت الأهرامات البيئية المزروعة بالأهرامات الطبيعية ، وأصيبت بالأمراض المتوطنة المرتبطة بالبيئة المعيشية المحلية ، أو الأوبئة الناتجة عن تنقل الإنسان أو الحيوان .

في ألمانيا ، تم التعبير عن هذا الاهتمام بالأسس الثقافية للحياة البشرية من خلال تطوير دراسات المظاهر الأرضية : فقد أظهروا كيف قامت الجماعات البشرية بتحويل وتنظيم البيئات الطبيعية وبناء المظاهر الأرضية . كان التركيز على إزالة الغابات ، وإدخال النباتات المزروعة والحيوانات الأليفة ، وأنظمة الحقول وطرق تشغيلها . كانت ثقافة الجماعات المتحضرة متلائمة

مع الزراعة وتربية الماشية ، بينما كان الصيد وصيد الأسماك وجمع الغذاء يعتبر منتجًا لقواعد الحياة البدائية . أظهرت المظاهر الارضية الحضرية والصناعية كيف كانت الحياة الاجتماعية مواتية لأشكال أخرى من العلاقات بين الإنسان و البيئة ، وذلك بفضل تنقل البضائع والأشخاص وتخفيف العديد من القيود البيئية المحلية . ومع ذلك ، لم يُظهر الجغرافيون اهتمامًا بالواقع الحضري بقدر اهتمامهم بالحقائق الريفية .

تم تحليل المظاهر الارضية الثقافية بشكل أساسي من منظور وظيفي : تم التفكير في الهياكل الميدانية ، على سبيل المثال ، كوسيلة لترجمة الشكل المكاني وضرورة تناوب المحاصيل والجمع بين الزراعة وتربية الماشية داخل المجتمعات ، ازداد وعي الجغرافيين ، لوجود السمات الموروثة في المشهد: جزء منها عكس المنظمات الوظيفية السابقة .

استورد الباحثون الأمريكيون العديد من الأفكار من ألمانيا ، وبشكل أكثر تحديدًا فكرة الجغرافيا الثقافية كدراسة للمظاهر الارضية . كان سوير أول من تصور الجغرافيا الثقافية كحقل فرعي في الجغرافيا البشرية واستخدم المصطلح على هذا النحو . اختلف نهجه في تحليل المظاهر الارضية عن النماذج الألمانية بطريقة واحدة : فقد شدد أكثر منها على دور البشر في تحويل المكونات البيولوجية للنباتات وطبيعة التربة وأشكال انجرافها . كان لديه اهتماما كبيرا بالمظاهر الارضية باعتبارها حقائق بيولوجية تشكلت بفعل الإنسان . بالنسبة له ، كان على الجغرافي الثقافي أولاً أن يمتلك معرفة جيدة بعلم النبات .

كان للاهتمام بالمكونات الحية للمظاهر الارضية عواقب أخرى . منذ تسعينيات القرن التاسع عشر في ألمانيا ، حاول الجغرافيون شرح أصل وتشنت الزراعة وتربية الماشية . كان إدوارد هان الشخصية الرائدة في هذا المجال . كان أول من أكد على الازدواجية الأساسية للنظم الزراعية : أحدهما يقوم على الحرث وإنتاج الحبوب والجمع بين الزراعة وتربية الماشية ؛ اعتمد الآخر على العزق واستخدام العقل لتكاثر النبات . أظهر هان بهذه الطريقة أن مشكلة أصل الزراعة والتشنت كانت مشكلة مزدوجة . كان على الجغرافيين اكتشاف مواعد الثورتين اللتين حولتا الصيادين / الجامعين من العصر الحجري الحديث إلى مزارعين من العصر الحجري الحديث . كان كارل سوير مفتوناً أيضاً بمشكلة أصول الزراعة والتشنت . كان يعتقد أن على الجغرافيين تحليل مسؤولية الثقافات البشرية عن تعطيل التوازن الطبيعي والتطور اللاحق للتعرية .

### الجغرافيا الثقافية كدراسة طرز الحياة

نهج آخر لدراسة العلاقات بين الإنسان و البيئة في منظور ثقافي تم تطويره بالتوازي مع مدرسة المظهر الارضي. ازدهرت بشكل رئيسي في فرنسا . بدلاً من التركيز على المظاهر الارضية ، اعتبر الجغرافيون الفرنسيون أن مهمتهم الرئيسية هي شرح توزيع السكان . اختلفت الكثافة البشرية لأن البيئات الطبيعية تغيرت من مكان إلى آخر ، ولكن أيضاً لأن المجموعات الاجتماعية المختلفة لم تستخدم نفس التقنيات عند استغلال نفس البيئة . ومن هنا كان التركيز على أنواع التنافس . كما طوره Vidal de la Blache . الفكرة كانت معقدة .

- 1- كان لها أساس إيكولوجي :أنواع مختلفة من اختيار المحاصيل وأشكال تربية الماشية المتكيفة مع بيئات معينة .
- 2- كان لها البعد التقني ، حيث أن الزراعة وتربية المواشي كانت تستند إلى نباتات وحيوانات منزلية معينة ، واشتملت على استخدام أدوات محددة واعتمدت على تطوير معرفة فنية محددة فيما يتعلق بتناوب المحاصيل ، والاستخدام الميداني ، وما إلى ذلك .
- 3- كان لها بعد اجتماعي ، حيث قامت بتحليل جدول عمل المجموعة ، وكيف تتشابك مع الأنشطة الاجتماعية الأخرى .

أعطى نهج طراز الحياة الجغرافيا الفرنسية قدرتها على الدخول بعمق في العلاقات المنسوجة محلياً بين الجماعات البشرية وبيئاتها . نظراً لتركيزها على التقنيات ، فقد ساعدت على دراسة التسلسلات التاريخية في استغلال الأرض . كانت تدرس جميع الأنشطة البشرية ، وقدمت طريقة جديدة لتصور الدراسات الاجتماعية .

جان برونهيس سامبل كان مسؤولاً عن التهجين بين تحليل النوع الفرنسي من الحياة والأسلوب الألماني لدراسات المظاهر الارضية . كان حريصاً بشكل خاص على دور التقنيات في هيكلة أساليب الحياة ؛ قاموا بطبع علامات ثقافية على المظاهر الارضية ؛ اتبع بيير ديفونتينيس طريقه (Deffontaines) ، في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين ، طور مدرسة قوية

للجغرافيا الثقافية في فرنسا : كانت اهتماماته الرئيسية هي تكيف الإنسان مع البيئات القاسية ، والفاعلية البشرية في تشكيل المظاهر الأرضية للمناطق المتحضرة . طور الجغرافيا الدينية .  
مثل بيير غورو تطوراً آخر لفكرة أسلوب الحياة بدأ من الكثافات البشرية . عندما اختلفوا في نفس البيئة ، اعتبر أن العوامل الثقافية لعبت دوراً رئيسياً : كان هذا موضوعاً فيدياليان . ومع ذلك ، فبالنسبة له ، كانت التقنيات التي بُنيت عليها الأنواع الفنية مادية واجتماعية . وبهذه الطريقة ، ربط دائماً دراسة الثقافات بالنهج الاجتماعي . كان شديد الحساسية للأسس المادية والاجتماعية للثقافات العظيمة - على سبيل المثال الصينيين ومشتقاتهم مثل الفيتناميين .

### الأشكال المبكرة للجغرافيا الاجتماعية

ظهرت عبارة "الجغرافيا الاجتماعية" في نفس وقت ظهور "الجغرافيا البشرية" ، وكانت على مدى جيل أو نحو ذلك مجرد ما يعادلها . لقد كان ذلك بسبب نهج طراز الحياة الذي نشأ فيه الاهتمام بالتنظيم الاجتماعي . عند استكشاف أسس الخصائص الإقليمية ، اكتشف الجغرافيون الفرنسيون ، في أوائل القرن العشرين ، أن أنواع الحياة لا تعتمد فقط على القواعد التقنية ، كما أنها تعكس الظروف الاجتماعية . عند العمل في غرب برييتاني ، أظهر كاميل فالو أن الزراعة المحلية مرتبطة بكل من الطرق المحددة للجمع بين الحراثة واستغلال المراعي الوعرة ، وهيكلة اجتماعي هرمي أعطى مالكي الأراضي سيطرة صارمة على مزارعيهم . في عمله على Pays de Caux ، ذهب Jules Sion إلى أبعد من ذلك . كانت هذه هضبة لأراضي مزرعة غنية ، حيث تطورت الصناعة المنزلية منذ القرن السادس عشر : اعتمدت على تحويل الكتان المزروع محلياً ، والفواضل الزراعية ، والتي سمحت بوجود مجموعة كبيرة من المزارعين بدوام جزئي أو عمال المياومة الذين تم تجنيد النساجين بينهم . منذ أن كان تسويق الكتان مربحاً للغاية ، تطورت البرجوازية المحلية . كانت مسؤولة عن استبدال القطن بالكتان في نهاية القرن الثامن عشر ، لتسخير الجداول المحلية ، وبناء المصانع الصغيرة ، ثم استخدام القمح المستورد من بريطانيا فيما بعد .

ظلت الدراسات مثل دراسات كاميل فالو أو جول سيون استثنائية لفترة طويلة . حاول Cholley André تنظيم هذا النوع من النهج في المناطق الريفية في أوائل الثلاثينيات . في الواقع ، تطورت الدراسات الاجتماعية بشكل رئيسي في المناطق الحضرية . في هذا المجال ، كانت قد بدأت في الولايات المتحدة من قبل مدرسة الإيكولوجيا الاجتماعية في شيكاغو ، في عشرينيات القرن الماضي : أصيب بارك وبورجيس بالنسيج الاجتماعي المتنوع للعاصمة الداخلية العظيمة للولايات المتحدة . خارج الحلقة ومبانيها الشاهقة ، كانت المدينة بأكملها مبنية من منازل منخفضة . كان توحيدها وهماً : كل حي يؤوي مجتمعاً معيناً . عند رسم الخريطة ، ظهرت المنطقة الحضرية كمجموعة من الحلقات متحدة المركز ، مع غلبة المهاجرين الجدد ذوي الدخل المنخفض في المنطقة الداخلية ، والياقات الزرقاء ذات الدخل المتوسط في الحلقة الثانية ، والياقات البيضاء عالية الدخل على الحافة .

أظهرت دراسات أخرى أن النسيج الاجتماعي لشيكاغو كان أكثر تعقيداً مما أظهره هذا النموذج الأولي . كان طلاب بارك وبورجيس أول من أكدوا على الحقيقة : تركز السكان السود في أحياء يهودية لم يتمكنوا من الفرار منها . بالقرب من لوب ، بقي "الساحل الذهبي" الثري ، حيث تجمعت المجموعات ذات الدخل المرتفع بالقرب من البحيرة . شدد طلاب آخرون في المجموعة على أصالة أسلوب الحياة الحضرية ، مقابل أسلوب الحياة الريفية . أصبحت خصوصيات الفلاحين والشعبية شائعة على نطاق واسع بين علماء الاجتماع . فيما يتعلق بمنطقة شيكاغو الحضرية ، اكتشف الخبير الاقتصادي هومر هويت أن النمط المتحد المركز للتوزيع الاجتماعي لم يكن هو الوحيد : فقد كان الهيكل الشعاعي موجوداً أيضاً . من قطاع إلى آخر ، نتجت الاختلافات عن مستويات الدخل المرتفعة أو المنخفضة .

لم يشارك الجغرافيون في هذا التوجه البحثي حتى بداية الأربعينيات ، عندما أثبت إدوارد أولمان وشونس دي هاريس وجود نمط ثالث من التوزيع الاجتماعي في منطقة شيكاغو : كان هذا التجمع مكوناً من مجموعة من مجتمعات ، لكل منها خصائصها العرقية أو الدينية .

## أثر الجغرافيا "الجديدة" على الدراسات الثقافية والاجتماعية

من الخمسينيات إلى أوائل السبعينيات ، تغيرت الجغرافيا بعمق . لم يعد يعتبر بشكل أساسي علمًا طبيعيًا . أصبحت علمًا اجتماعيًا بشكل متزايد . وأفضل مثال على هذه العملية هو ظهور "جغرافيا جديدة" خلال الستينيات ، لكن التحول بدأ في وقت مبكر وكانت عواقبه ما تزال مهمة في السبعينيات ، خاصة في بداية العقد .

طالما كان الجغرافيون علماء طبيعيين ، فإنهم يفتقرون إلى أدوات التعامل مع الحقائق الثقافية والاجتماعية . بفضل المنعطف المعرفي الجديد ، يمكنهم الاعتماد على الأفكار التي طورها علماء الاجتماع أو علماء الأنثروبولوجيا أو الاقتصاديون . نظرًا لأن الغالبية منهم قبلت المفهوم الوضعي الجديد للبحث العلمي ، فقد ظلوا ، مع ذلك ، مهتمين بالبعد الملحوظ للبيانات الاجتماعية والثقافية ، أو تحليل السلوك العقلاني ، أكثر من اهتمامهم بالبعد المعاش .

ركزت مدرسة شيكاغو للدراسات الحضرية بشكل أساسي على علم الاجتماع وثانيًا على الأنثروبولوجيا . مع اكتشاف تعقيد الأنماط الاجتماعية في المناطق الحضرية ، أصبحت مشاكل المنهجية ذات أهمية متزايدة . ما هي أهم بنية لبارك وبورجيس ، أو التنظيم القطاعي لهويت أو مشهد أولمان وهاريس؟

علماء النفس عند تفسير الاختبارات التي قاموا ببنائها من أجل قياس الذكاء . كانت غالبية البيانات التي تم جمعها زائدة عن الحاجة . لقد عكسوا الاختلافات في عدد قليل من العوامل ، من بينها عامل (الذكاء) كان من الواضح أنه الأكثر أهمية . من أجل تقييم تأثيرها ، طور علماء النفس والإحصائيون تقنيات التحليل العاملي . اختار علماء الاجتماع الاعتماد على التحليل العاملي لرسم خريطة للمناطق الاجتماعية .

لقد كان الوقت الذي أصبح فيه الجغرافيون في شيكاغو حاضرين بشكل متزايد في الدراسات الحضرية . بفضل Brian J.L Berry ، تحولوا من دراسة الأماكن المركزية على مستوى الشبكات الحضرية إلى الشبكات داخل المدن للأماكن المركزية . بحلول نهاية الستينيات ، قرروا استخدام مرافق الحوسبة لتسريع التحليل العاملي للتجمعات الاجتماعية داخل المناطق الحضرية . سمحت لهم بإثبات أن كل من النماذج الثلاثة التي تم تطويرها في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي فسرت جزءًا من الواقع . كان النموذج المتحد المركز مرتبًا بهيكل الأسر ووجود الأطفال أو غيابهم ؛ نتج نموذج القطاع عن معرفة متحيزة للتنظيم الحضري ، مما أدى إلى اختيار موقع على نفس المحور الشعاعي عندما قرر الناس الانتقال إلى منزل جديد ؛ عبر نموذج السيفساء عن قوة شبكات التقارب الثقافي والاجتماعي داخل المجتمعات العرقية أو الدينية .

وفقًا للمدن والبلدان ، تغير وزن العوامل . كانت الجغرافيا الاجتماعية للمدن مواتية لبعض النتائج العامة ، ولكن أيضًا إلى فكرة أنه ، اعتمادًا على البلدان والثقافات ، يوجد بعض التنوع في أنماط التوزيع الاجتماعي . كان هذا الشكل من الجغرافيا الاجتماعية مثيرًا للاهتمام بالتأكيد ، لكنه قدم نقاط ضعف واضحة . اعتمدت حصرا على بيانات التعداد . ووصفت الجغرافيا الاجتماعية للمدينة عندما كان الناس في منازلهم ، في الليل ، لكنهم تجاهلوا ما يحدث خلال النهار .

## الجغرافيا الاجتماعية للمناطق الريفية

خلال الستينيات ، تم تطوير الجغرافيا الاجتماعية بشكل أساسي لتصوير المناطق الحضرية والصناعية . الاهتمام بالهياكل الاجتماعية الريفية ، والذي كان واضحًا لدى الكثيرين . اختفى الجغرافيون الفرنسيون في بداية القرن العشرين . كان التحول في المناطق الريفية سريعًا جدًا . تغير نطاق مجالات العلاقات : لم تعد الحياة الاجتماعية محلية بشكل أساسي .

تم توفير الأدوات التحليلية لهذا النوع من المواقف من قبل علماء الأنثروبولوجيا : روبرت ريدفورد كان مفتونًا ، منذ أوائل الأربعينيات ، بالمجتمعات الشعبية التي التقى بها في الريف المكسيك . لم يتصرف أعضاؤها بنفس الطريقة من المزارعين في الغرب الأوسط الأمريكي . كان السوق بالنسبة لهم قريبًا من المنطقة التي تتفاوت فيها الأسعار عادة ضمن الحدود التي تضعها الجمارك . كانت مشكلتهم الرئيسية هي الحد من التأثير الاجتماعي لعدم الاستقرار المغلف في نظام إنتاجهم .

كانت خصوصيات المجتمعات الشعبية في المكسيك مماثلة لتلك الخاصة بمجتمعات الفلاحين في جميع أنحاء العالم . أدى تسارع التحديث إلى تدمير هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي . فخلال

الستينيات والسبعينيات ، أصبحت المرحلة الأخيرة من الفلاحين الغربيين أحد الموضوعات المركزية لعلماء الاجتماع ، والمؤرخين والجغرافيين .  
لم تختلف المناطق الريفية ، لكن مجتمعاتها اتخذت أشكالاً جديدة . وبالتالي تم تكريس العديد من المشاريع البحثية لاستكشاف الحياة الاجتماعية في المناطق التي لم تعد الزراعة فيها النشاط المهيمن في كثير من الأحيان . حيث أتاح تعميم ملكية السيارات ومعدات الهاتف إمكانات جديدة للوصول إلى أشكال التواصل الاجتماعي التي كانت محفوظة حتى ذلك الحين للمناطق الحضرية : ومن هنا تكاثرت الدراسات حول مناطق الضواحي والمناطق الحضرية والريف الحضري وتأثير الترفيه والسياحة . في هذه المناطق في ألمانيا ، استخدم هارتكي انتشار الأراضي البور كمؤشر على التحضر الاجتماعي في المناطق الريفية .

### الصلة والنجاح المتزايد للتحليل الاجتماعي الماركسي

تزايد عدم ارتياح الجغرافيين تجاه المنشورات التي أنتجتها الجغرافيا الجديدة . استندت دراساتهم على نهج وظيفي . شرحوا كيف يعمل المجتمع ، لكنهم لم يقدموا وجهات نظر نقدية حول ما هو خطأ في عالمنا . ظهر وجود التفاوتات الاجتماعية بشكل متزايد على أنه فضيحة أخلاقية . بدأ تفسير التوزيع المكاني للمجموعات الاجتماعية بشكل منهجي من حيث القوة غير المتكافئة بين الطبقات وسيطرة الأقوى على الأضعف ، هو ، على طول منظور ماركسي .  
بين عامي 1968 و 1972 ، أصبحت الدراسات الاجتماعية واحدة من أكثر حدود البحث الجغرافي شعبية . بفضل ويليام بونج ، ظهرت طرق جديدة لتحليل الفصل العنصري ، كما يتضح من دراسته لفيتزجيرالد ، أحد أسوأ الأحياء اليهودية السوداء في ديترويت . خلال الستينيات وأوائل السبعينيات ، أصبح نطاق الجغرافيا الاجتماعية أوسع بكثير . ومع ذلك ، بقيت بعض قيودها : فقد اعتمدت بشكل كبير على البيانات المقدمة من التعدادات ؛ كانت أكثر اهتماماً بالتوزيعات الاجتماعية في الليل منها في ضوء النهار ؛ كان يركز على التسلسلات الهرمية الاجتماعية أكثر من التركيز على الحياة والعمليات الاجتماعية .